تأمّلات في كتاب:

"عبد الرّحمن الثّعالبي و التّصوف"

لِـ : عبد الرزاق قسّوم

الأستاذة دوفاني سعاد

سنة أولى دكتوراه

أستاذة متعاقدة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة

–كلّية الحضارة–قسم التاريخ

إنّ ما أحال الأمّة إلى البطالة الفكريّة المدمّرة عوامل شتّى ، لعلّ أهمّها أن يحال عظماؤها إلى مجاهيل في دنيا الفكر، و ينالوا قدرا من الإهمال و النّسيان، و إن ذكروا فبصور مقتضبة،أو مشوّهة بل حتّى خاطئة.

و تتبع خطوات العظماء و إخراجهم من عالم النّسيان، مع ما يكتنفه من صعوبات سيشعرنا بشيء من الطّمأنينة، بأنّنا مازلنا أحياء فكريا و أنّنا نملك إرادة تدفعنا لارتقاء الدّرجات المعرفيّة، و الإسهام في تطوّر الحركة العلميّة بانتباهنا إلى رجال صنعوا التّاريخ و أضافوا بإسهاماتهم ما يستحقّ منّا الوقوف عنده، واتّخاذه نموذجا للعالم العامل المصلح.

و هو ما فعله الدّكتور عبد الرّزاق قسوم مع عبد الرّحمن الثّعالبي الذي أهملت جوانب معرفيّة بالغة الأهميّة من شخصيّته، و قد ركّز في كتابه "عبد الرّحمن الثّعالبي و التّصوّف" على البعد الصّوفي في شخصية عالم محدث، فقيه، متكلّم، فيلسوف، زاهد و غير خاف على أحد ما نزع إليه التصوّف الإسلامي من تحقيق غاية النّجاة بالنّفس و سدّ مداخل الشّيطان إليها، بتأديبها بأدب الإسلام و النّزوع بها نحو التّقوى و الخوف من الله ، خاصّة في خضم الفتن و ركون النّاس إلى الدّنيا و اشتغالهم بملذّاتها و العزوف عن الآخرة ، ثمّ تحوّل بعد ذلك من طريقة للتربية الخلقيّة و الرّوحية إلى فلسفة نحت بالتّصوّف مناحي وقع حولها جدل ، و خلاف ، و أدّت بالمسلمين إلى

الإنقسام حول حقيقة التّصوّف،و المهم من كلّ هذا هو البحث في ثنايا هذا الكتاب، و محاولة تصنيف تصوّف عبد الرّحمن الثعالبي.

عند تأمّل الكتاب، نلاحظ أنّ " عبد الرّزاق قسوم" أفرد لعصر عبد الرّحمن الثّعالبي الفصل الأوّل منه، لإدراكه أثر العصر على الفرد باعتباره إطارا يحدّد معالم و ظروف نشأته و ملابسات تكوينه ، و قد تعرّض لسمات الحياة الإجتماعيّة في عصر الثّعالبي الذّي تميّز بكلّ مظاهر التخلّف الحضاري و ما صاحبه من فتن واضطرابات أساسها ضعف العقيدة في النفوس، وانعدام أثرها في حياةٍ طبعها الجهل وانتشار الخرافة بين أوساط لخّصها ابن خلدون [1] في مفردات: البداوة –العصبية –و القبليّة.

أمّا الحياة الثقافيّة فتميّزت بأثر ظهور المدارس في كلٍّ من فاس،تلمسان،بجاية و تونس أي في المغرب العربي على غرار المشرق و بإشراف رسمي، ما ساعد على تطوّر الحركة العلمية، و انتصار الإسلام السنّي : المذهب المالكي فقهيّا و الأشعري عقديّا، حيث استعملت هذه المدارس منهجين مختلفين هما: الإجتهاد و التّقليد[2]

و ممّا يذكره التّاريخ أنّ هذه المدارس التي أنشئت أساسا لتدريس الفقه و القوانين الشرعيّة، و العلوم اللّغوية، عرفت إنتشارا واسعا لحركات التصوّف التي من المفروض أنّها كانت تلقى معارضة من الفقهاء، و مثل ذلك وجود المتصوّف "عبد الله الشّريف" في المدارس الحفصيّة التّعليميّة[3]، يقول الأستاذ قسوم "شجّعت هذه المدارس التّصوف و ساعدت على ظهوره و انتشاره خارجها" [4] .

و الكتاب محاولة لكشف الجوانب المغمورة من شخصيّة الثعالبي ، ببيان آفاق الرّجل الذي حصره الباحثون في إطار دينيّ بالمفهوم العاميّ المقترن بالزاويّة المسمّاة باسمه، بينما تزخر حياة الرّجل الثقافيّة بتنوّع و غنى حاول الكتاب الإشارة إليها.

فقد تنقّل الثّعالبي في الجزائر من "يسر" إلى "بجاية" في أواخر القرن الثّامن هـ [5] و بدايات القرن التاسع كما يخبر هو عن نفسه في مخطوط له بعنوان "الجامع"[6] ، يذكر فيه أنّه لقي في

---

[1] عبد الرزاق قسوم،عبد الرحمن الثّعالبي و التّصوّف،ص16

[2] عبد الرزاق قسوم،عبد الرحمن الثّعالبي و التّصوّف،ص22

[3] المصدر نفسه،ص23

[4] المصدر نفسه،ص24

[5] المصدر نفسه،ص33

[6] المصدر نفسه،ص33

بجاية مشايخ و علماء تلقّى عنهم العلم و كانوا أهل زهد و فقه ، إلى جانب ما تميّزوا به من تقوى، و ورع، و بعد عن الدّنيا و مغرياتها من أمثال : أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي، و أبي العبّاس أحمد بن إدريس، و يذكر كذلك أبو الحسن علي بن عثمان المانجلاتي، و أبو الرّبيع سليمان بن الحسن، و أبو الحسن علي بن محمد اليليلتني، و علي بن موسى، و أبو مهدي عيسى الغبريني، و أبو القاسم المشدالي، و أبو العبّاس أحمد النّقاوسي و غيرهم، يقول الثّعالبي : "حضرت مجالس هؤلاء و عمدتي على الأوّلين رحمهم الله و رضي عنهم أجمعين"[1] .

و إلى جانب بصمات هذه البيئة العلميّة المتنوّعة في شخصية الثّعالبي، يضاف عنصر لا يقلّ قيمة عن سابقه و هو رحلته إلى خارج الجزائر صوب تونس، و باقي الحواضر العلميّة العربيّة، و لا يدلّ هذا إلّا على تعطّش الرّجل إلى المزيد من العلوم ، لعدم اكتفائه بما نهل و توق نفسه إلى المزيد، فتوجّه صوب عاصمة الحفصيّين في أواخر 809هـ _1406م [2] ، و أخذ عن الشّيخ إبن عرفة، وأبي عبد الله محمد إبن خلف الأبي، و أبي القاسم البرزلي، و أبو يوسف يعقوب الزغبي و غيرهم كثيرون[3] .

و بعذ تونس يمّم وجهه صوب المشرق العربيّ و تحديدا إلى مصر، التّي كان يلقّبها بالشرق، فلقي بها أبا عبد الله محمد البلالي، ثمّ توجّه إلى مكّة و رجع بعدها إلى مصر أين أجازه شيخ المحدّثين وليّ الدّين أحمد بن عبد الرّحيم العراقي، و قفل بعدها راجعا إلى تونس فلزم أبا عبد الله محمّد القلشاني، ثمّ البرزلي، يقول الثّعالبي عن نفسه "و لم يكن يومئذ بتونس من أعلمه يفوتني في علم الحديث منّة من الله [4] .

الثّعالبي الفقيه المحدّث المتكلّم و المفسّر:

و هنا يبرز الأستاذ قسّوم الثّعالبي الفقيه المحدّث القارئ اللّغوي و المفسّر، دون أن يهمل ميله إلى الزّهد الذّي طبع حياته بطابعه، فمهّد له سلوك طريق العارفين.

أمّا في علم الكلام ، فإنّ الثّعالبي يقف موقف الرّافض لآراء كلّ من المعتزلة في نفيهم للصّفات، و الدّهرية و المجسمة، إذ يعرّف الجلالة بأنّها "إسم جامع لمعاني الذّات و الصّفات و الأفعال، و إن شئت قل هو إسم لموجود واجب الوجود، موصوف بالصّفات منزّه عن الآفات لا

---

[1] المصدر نفسه،ص34

[2] المصدر نفسه،ص35

[3] المصدر نفسه،ص35

[4] المصدر نفسه،ص36

شريك له في المخلوقات"[1] و هذا الموقف يوضّح حقيقة الثّعالبي المتكلّم، الذي يرفض الآراء الكلاميّة المنصرفة عن الكتاب و السّنة، و قد تميّز ردّه على المعتزلة و القدريّة و الجبريّة بردّ العالم المتضلّع في علم الكلام المبني على هدي الكتاب و السنّة، كما ناقشهم في مسائل الألوهيّة ، الرؤية، و الحريّة، مقتدياً في آرائه الكلاميّة بإمام الحرمين الجويني ، و أبي حامد الغزالي، و إبن رشد الجدّ، و البرزلي و غيرهم من أنصار المذهب السنّي، معتمدا في تعريف المصطلحات الكلاميّة على المنطق الصّوري.

و بهذا يبرز الأستاذ قسوم بعض حقيقة الثّعالبي و فلسفته الكلاميّة، كما بيّن تضلّعه و باعه الكبير من خلال تحديده لمدلولات فلسفيّة تدلّ على تنوّع معارفه، و اطّلاعه الواسع.

أمّا صميم البحث الذي هو "تصوّف الثّعالبي"، فقد أبرز فيه الكاتب بوضوح مسلك الثّعالبي في التّصوّف المتميّز يالإعتدال و الوسطيّة، و التّشبّع بالتّصوّف السنّي المعتدل، الذي يجمع بين الحقيقة و الشّريعة، متأثّرا في ذلك بأعلام الصّوفيّة السائرين في هذا المسلك،كالغزالي، الجنيد، سرى السّقطي و أمثالهم ممّن جعلوا الكتاب و السنّة أساسا للزّهد و التصوّف المحمود[2]، كما أنّ سيرة حياته أثبتت أنّه كان يعيش الزّهد سلوك حياة، و خير ما يلخّصها الأبيات التي يقول فيها:

تمرّ الليالي بنفسي و مالي فيا قومي مالي عن الموت سالي

نهاري جدال و ليلي انجدال و حولي رجال على مثل حالي[3]

و قال أيضا:

أتحرص يا ابن آدم حرص باق وأنت تمرّ –ويحك– كلّ حين

و تعمل طول دهرك في ظنون وأنت عن المنون على يقين

و يقول كلاما يفوض ورعا و زهدا، و رجاء رحمة الله تعالى:

فيا ذا الجلال، و يا ذا الجمال ويا ذا المعالي، عليك اتّكالي

فكن عند ظنّي، و لاتسلمني ولا تخذلني بسوء فعالي

فأنت الرّجاء، و منّا الجفاء ومنك العطاء، فهب لي سؤالي[1]

---

[1] المصدر نفسه،ص42 43

[2] المصدر نفسه،ص62

[3] عبد الرحمن الثعالبي،العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة،ط1،ج1،مطبعة الحميد،الهند،1317ه، ص104

الثعالبي و الأخلاق:

لقد أشار الأستاذ قسّوم إلى جانب الأخلاق لما لها من علاقة بالتصوّف، ثم لبيان دور الثعالبي في الإصلاح، باعتبار الأخلاق ركيزة الإصلاح من حيث الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر، و إرشاد الخلق إلى الحق، و هو دأب جميع الصّالحين و المصلحين دون أن نغفل الفساد المستشري في عصره، مع بعد النّاس عن روح الدّين و حقيقته، ولقد أصاب الكتاب في توضيح هذه الزّاوية المشرقة من حياة الرّجل الذس حمل همّ المسلمين و تأثّر بما وصلوا إليه من ضياع أخلاقهم و فساد ذمامهم عندما أفلتوا من أيديهم العروة الوثقى، و غيّبوا الدّين عن حياتهم و ممارساتهم، و يذكر الكتاب أنّ معالجة الثّعالبي لميدان الأخلاق كانت من زاويتين [2] :

الأخلاق الإجتماعيّة، و الأخلاق النّفسيّة.

و أراه في هذا ملتزما بقوله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ "الرّعد11، لأن أيّ إصلاح يهمل الفرد لن يجدي نفعا، إذ هو الأساس المتين الذي يؤدّي حتما إلى إصلاح المجتمع.

و يبدو من تصنيفه للأخلاق تأثّره بالقرآن الكريم و السنّة النبويّة، إذ نجده يزن الأخلاق بميزان الشّرع و يخضعها لأوامره و نواهيه، فمثلا عندما يقسّم الأخلاق الإجتماعيّة إلى أنواع ثلاث: [3]

-أخلاق تتعلّق بالقلوب

-أخلاق تتعلّق بالأقوال

-أخلاق تتعلّق بالأفعال

حيث يدور النوع الأوّل حول العقيدة الصّحيحة و ما يندرج ضمنها من الأخلاق كالصّبر، الخوف، الرّجاء، المحبّة و غيرها.

أمّا القسم الثّاني فيخضعه إلى ميزان الأمر و النّهي إذ يقسّم الأخلاق إلى مأمور به كتلاوة القرآن و حسن تدبّره و تأمّله، و منهيّ عنه كالغيبة و النّميمة، الكذب، الظّلم و نحوها.

---

[1] المرجع نفسه،ص104

[2] عبد الرزاق قسوم،عبد الرخمن الثعالبي و التصوّف،ص77

[3] المصدر نفسه،ص78

أمّا النّوع الثّالث و هو المتعلّق بأخلاق الأفعال، فنجد الثعالبي يتوسّع فيه ليشمل آداب النّكاح، العقيقة، و آداب إجابة الدّعوة، إلى درجة أنّه يوضّح ما يجب أن يلبّى من الدّعوات التي توطّد العلاقات بين النّاس، و تنشر المحبّة بينهم، كما تعمّق الأخوّة و تبرز آثارها الطّيبة على العلاقات بين المؤمنين، و ما لا يجب تلبيته لما اشتمل عليهمن منكر، كالتي يقصد بها التّطاول، الرّياء، السّمعة و المحمدة [1]، و يظهر من خلال عرض الأستاذ قسّوم لمعالجة الثّعالبي في مسألة الأخلاق الإعتدال الّذي تميّز به الرّجل، خاصّة و هو من تلاميذ فكر الغزالي و من أشدّ المتأثّرين به، و لكونه عالما مصلحا قضى معظم عمره في طلب المزيد من العلوم و الأنوار المحمّديّة، فإنّ الثّعالبي لم يغفل معالجة مسألة الأخلاق في كلّ ما يتعلّق بالحياة، حتّى اللباس و السّفر و التّختّم، و دخول الحمّام، و نحوها، و هذا الشّمول في الطّرح سبقه الشّمول و التّوسّع في أخذ العلم من منابعه و طلبه في بلاد الله الواسعة، قاصدا التّنوّع و الغنى، إتقان مهمّة الآمر بالمعروف، النّاهي عن المنكر، الدّاعي إلى الله على بصيرة، و القائم بمهمّة الإصلاح في مجتمع عمّه الفساد و تعاضم فيه المنكر.

و في ذلك ذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله أنّه وسط تدهور الأوضاع السياسيّة في وسط الجزائر في القرن التّاسع هجري، و ما آلت إليه السّلطة من ضعف، ممّا اضطر العلماء و المرابطين في قيادة العامّة في الحروب و ردّ غارات الأعداء خاصّة الأجانب، ما دفع بالثّعالبي إلى توجيه رسالة في الجهاد إلى أحد علماء زواوة، يشير فيها إلى تردّي الأحوال و سوئها، و يهيب بالعلماء أن يتحمّلوا مسؤولياتهم أمام الله تعالى و النّاس لصدّ غارات بني الأصفر –كما يسمّيهم– [2].

و من هنا يظهر دور العالم الجليل الثّعالبي، الذي لم تستهوه إغراءات الحكّام و السلاطين و لم يتقرّب منهم، بل تحمّل مشاقّ الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر، و حمل العلماء على عدم التقاعس في حثّ الناس على الجهاد، و ردّ الظّلم و العدوان داخليّا و خارجيّا، فسخّر علمه و نفسه لخدمة دين الله، والعودة بالعقيدة إلى معينها الصّافي و مصدرها الخطب لكتاب الله و سنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، مع الإنتاج الغزير الذي يظهر في مؤلّفاته و رسائله في كلّ أصناف علوم الشّريعة، حتّى أصبح علما تعتزّ به مدينة الجزائر، يقول أبو القاسم سعد الله "أمّا مدينة الجزائر فاشتهرت بعالمها و زاهدها عبد الرّحمان الثّعالبي و تلميذه "أحمد عبد الله الجزائري" [3].

---

[1] المصدر نفسه،ص79

[2] أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثّقافي،ط6 ،2009 ، دار البصائر للنشر و التّوزيع،ج1،ص43

[3] المرجع نفسه،ج1،ص45

كما يشير الأستاذ قسّوم إلى توسّع الثّعالبي في تعريف الأخلاق النّفسيّة و التي حضيت باهتمامه، ومثّلت جانبا خصبا متعدّد الميادين، جاري فيه كبار العلماء و العارفين، و زاد عليهم بمخالفتهم، و نذكر ذلك تعريفه للمحبّة و الذي خالف فيه ذا النّون المصري، لأنّه يقرنها بالإرادة فيقول "والمحبّة إرادة يقترن بها إقبال من النّفس، و ميل بالمعتقد" في حين يصرفها المتصوّفون الآخرون إلى معاني العشق و الوصال و الإتّحاد، و هنا موضع تميّز

الثّعالبي في معنى المحبّة.

و قد حضيت مسألة الأخلاق باهتمام خاص عند الثعالبي، التي أشار إليه الأستاذ قسوم باعتباره جانبا هامّا من التّصوّف.

الثّعالبي و التّفسير

و قد رأى مؤلّف الكتاب عبد الرزاق قسّوم ضرورة تسليط الضوء على منهج الثّعالبي في تفسير القرآن ليتمكّن من إبراز الصّورة الواضحة لهذا العالم الجليل، و التّوصّل إلى تأشيرة النّزعة الصّوفيّة على منهجه في التّفسير أو العكس، و قد اعتبره من المفسّرين لأنّه كتابه: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" جدير بأن يصنّف ضمن كتب التّفسير، و صاحبه جدير أيضا بأن يعد من المفسّرين ، و قد ضمّنه في أربعة أجزاء لا يقلّ الواحد عن 300 صفحة[1]

و يشير الأستاذ قسّوم إلى أنّ سبب اهتمام المسلمين بتفسير القرآن الكريم في كلّ الأزمنة و العصور هو المكانة العظيمة التي يتبوّؤها القرآن الكريم في عقول المفكّرين، و ما يحتاجه المسلمون من معرفة معانيه، واستكشاف كنهه، و إدراك حكمه و أسراره من جهة، ومن جهة أخرى لأنّه معجزة الإسلام الخالدة إلى قيام السّاعة.

و مع نزول القرآن الكريم نشأ تفسير القرآن و ظهرت بعد وفاة الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم– مدرستي الرّأي و الحديث، فظهر التّفسير بالرّأي و التّفسير بالمأثور، ثمّ تلاه التّفسير الفلسفي، و التّفسير الصّوفي و غيرهما.

و قد صنّف الثّعالبي في عداد المفسّرين الصّوفيّين لما ذكره في خاتمة "الجواهر الحسان": "إنّي لكتابي هذا المسمّى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، الذي ألّف هذا الغريب عجائب و

[1] عبد الرزّاق قسوم،عبد الرحمن الثعالبي و التصوّف،ص85

أمورا مباركة لا يمكنني الآن استفتاؤها جميعا، أخشى أن يكون من باب إفشاء أسرار الله التي لا يمكن ذكرها إلّا بإذن أهلها إهل الذّوق".[1]

و لئن كان تفسيره يصطبغ بالصّبغة الصّوفيّة(غير الفلسفيّة)، فإنّ الطّابع العام الذي يغلب على التّفسير كلّه هو التّفسير بالمأثور و الذي يميل في كثير من المواضع إلى تفسير المتصوّفة، و ما في نهج الرّجل من إعتدال و ترجيع للعقل على الخرافة و الدّروشة، كما يجد المتتبّع لتفسير الجواهر الحسان لجوء الثّعالبي إلى بعض الإشارات، والتي يبدو أنّه لم يبالغ في التّعمّق فيها، على غرار ما يفعله أهل الحقائق المتصوّفون المتمسّكون بأصول الإسلام، و النّاهجون نهج الإعتدال[2]

و يعلّق الأستاذ قسوم على "الجواهر الحسان" بأنّه رغم الجهد الضّخم المبذول في هذا الكتاب، إلّا أنه يفتقر إلى الإبداع، و نرى فيه الثّعالبي مقلّدا ملتزما برأي مشايخه، وما أثر من أقوال السّلف الصّالح.

الثّعالبي و المرائي:

و يكمل الأستاذ قسّوم الصّورة التي أراد تكوينها للثّعالبي بالتّعرض إلى المرائي، ليخلص إلى إبراز جانب المرائي و أثرها في توضيح حقيقة الرّجل، و إبراز خفايا شخصيّتة من خلالها، و قد أخضع المرائي المنسوبة إلى الثّعالبي لميزان العقل و الواقع و حقيقة الرّجل، فردّ منها ما كان منحولا موضوعا لأسباب متعدّدة، و قبل منها ما رآه يتوافق مع العقل و طبيعة عالم كالثّعالبي رغم منزلة المرائي عنده، و التي حضيت باهتمام كبير لديه، إذ كان من المقتنعين بصدقها من جهة، و من جهة أخرى ذيوعها عند النّاس في عصره المعروف بالتصوّف و الجمود على التّقليد وما يتبعه من إبعاد للعقل، و المهمّ هنا الإشارة إلى أنّ الرّؤى ليست أمراً مستحدثًا، بل أمر حدث مع الأنبياء –عليهم السّلام– كرؤيا يوسف و أمّ موسى، و إبراهيم عليهم السّلام، و رؤيا فرعون و العزيز في عهد يوسف، و كذلك الرّؤيا الصّالحة في المنام و التي كانت أوّل ما بدء به الرسول عليه الصلاة و السّلام،إذ روت السيّدة عائشة أنّه كان لا يرى رؤيا إلّا و جاءت كفلق الصّبح.

أمّا الصّوفيّة فقد اعتبروا الموائي نوعا ممن المكاشفة للأولياء و الصّالحين كما ذهب إليه الغزالي و الجويني، و الفلاسفة القدامى كانوا يعتبرون المرائي صورا ترد على من يرونها من عالم ما فوق الطّبيعة، و هكذا كانت الأحلام عندهم رسائل كائنات إلهية فوق مستوى البشر[3] ، إلى

---

[1] المصدر نفسه،ص92

[2] المصدر نفسه،ص97

[3] المصدر نفسه،ص100

أن جاء أرسطو و عاد بالمرائي إلى الطّبيعة البشريّة، فنفى أقوال سابقيّة حيث قال: "إنّ الأحلام ليست رسائل تردّ من الآلهة و إنّها لا تكشف لنا شيئا من المصادر الخارقة للطّبيعة، و إنّما الأحلام لون من النّشاط النّفسي يصدر عن النّائم بحسب الظّروف التي يكون عليها في نومه"[1] .

أمّا العلم الحديث فتعبر محاولاته ضئيلة مقارنة بحيرة الإنسان أمام المرائي، فذهبت بعض الجهود إلى ربطها بحالة اليقظة عند الإنسان و أثرها على نومه، بينما ذهبت جهود أخرى بإبعادها عن حالة الإنسان في اليقظة، و ذهب فريق ثالث إلى ربطها بمشاعر الإنسان، و يأتي سيقموند فرويد ليجمع كلّ الآراء حول رأيه و زعمه أنّ أساس المرائي هو الكبت الجنسي لدى الإنسان،و مهما يكن من أمر و رجوعا إلى الثّعالبي في مسألة المرائي، نجده ينحو في هذا الأمر منحى المتصوّفة كالغزالي، رجوعا بها إلى سيرة الصّحابة و السّلف الصّالح، فهي عنده نوع من الكرامات خصّ بها الله تعالى الأولياء[2] .

يضاف رأيه في المرائي إلى ما سبق ذكره، و يستحقّ بذلك كلّه أن يصنّف ضمن أهل الزهد الصادق و العقيدة الصافية ليكون رجلا من رجال التّصوّف الحقيقيّين.

و أختم هذا البحث بالإشارة إلى خلاصته المتمثّلة في ذكر النّقاط الإيجابية و السّلبية في هذا الكتاب بعد التأمّل، فيه أما النّقاط الإيجابية:

– يكفي الأستاذ قسّوم شرفا أن يهيل التّراب عن العلماء المغمورين من أبناء الجزائر الأفذاذ، بفعل تقاعس مفكّرينا و علمائنا في توضيح هذه الصّورة المشرقة التي يستحقّها علماؤنا الأجلّاء.

– لقد كان في الكتاب شيء من إنصاف العالم الزّاهد، الشيخ عبد الرّحمن الثّعالبي الذي اقترن إسمه بزاويته المشهورة في الجزائر العاصمة دون التّعدّي إلى مكانته العلميّة و الإجتماعية في وقته، و دوره في الإصلاح و الوقوف في وجه بني الأصفر من الأعداء المتربّصين بهذا البلد الحبيب.

– إبراز مكانة الثّعالبي العلميّة ببيان الشّخصيات التي كان لها الأثر الواضح في توجيه علمه و زهده، و بيان الجهد الذي تحمّله و المشاق التي كابدها في سبيل طلب العلم بالإرتحال

[1] المصدر نفسه،ص101

[2] المصدر نفسه،ص118

داخل الجزائر ثمخارجها بدءً بتونس إلى الحجاز، إلى مصر، ثم إلى تونس، و في كلّ محطّة كان يلتقي كبار العلماء فيسمع منهم، و يجيزوه في العلم الذي أخذه عنهم.

– كما سعى الكتاب إلى إعطاء الصّورة المشرقة لتصوّف الثّعالبي المعتدل و الذي كان قائما على الكتاب و السّنة، ثمّ على سيرة السّلف الصّالح و كذا اضطلاعه بالأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر، و تقديم النّصح للعلماء و تذكيرهم بدورهم في قيادة العامّة.

– فتح آفاق البحث أمام الأكادميّين و الباحثين في جوانب شخصيّة الثّعالبي.

أما النّقاط السلبيّة : وإن كانت بعض الملاحظات و التي أذكر منها:

ذكر الأستاذ قسوم أنّ جوانب شخصية الثّعالبي متعدّدة تحتاج إلى البحث و التّنقيب حيث قال: "فمنهجه في التّفسير في حاجة إلى بحث مستفيض ،و آراؤه الأخلاقيّة و الكلاميّة ماتزال مواضيع تستحقّ البحث و التّنقيب، هذا دون إغفال تحقيق مخطوطاته العديدة" [1] إلى أن يقول"و نودّ أن نشير في آخر هذه الكلمة، إلى ظاهرة تحتاج إلى البحث و الدّراسة، و هي ظاهرة اختفاء جانب الثّعالبي العلميّ، و احتفاظه بجانبه الدّينيّ التقليدي المحافظ" [2].

فكيف بعد هذا يحكم عليه الأستاذ قسّوم أنّه رجل يفتقد إلى الإبداع، و هو حكم لا يكون صحيحا إلّا بعد الإحاطة بكلّ إنتاج الرّجل و تحقيق مخطوطاته، و تسليط الضوء على كلّ جوانبه.

–لاحظت أنّ الفصل السّابع و الأخير: المرائي عند الثّعالبي، أخذ أكثر من حجمه وكان فيه إطالة، حيث تساوى مع الفصل الرّابع: تصوّف الثّعالبي، و الذي هو صلب موضوع الكتاب، ثمّ إنّ هذا الفصل السّابع على طوله لم يضف في النّهاية أيّ جديد يذكر إلى البحث، اللهمّ إلّا إبعاد بعض المرائي المنحولة و المتداولة حول الثّعالبي و ما فيها من إدّعاءٍ و بعد عن حقيقة و طبيعة الرّجل.

–ينقص البحث التطرّق إلى سيرة الرّجل الشخصيّة و تسليط الضّوءعلى جوانب حياته العائليّة و علاقاته و معاملاته، حتى تكتمل الرّزية الكونيّة عند الرّجل، هل هو مقبل على الحياة إقبال العارفين؟ فندرك أنّه كان يمارس الزّهد الإيجابي، أم كان عازفا ليكون زهده سلبيّا و هروبا من الدّنيا و ترك المهمّة التي خلق لها الإنسان، و هي عمارة الأرض و خلافة الله و تحقيق العبوديّة الخالصة له.

---

[1] المصدر نفسه،ص126

[2] المصدر نفسه،ص127

–ذكر أبو القاسم سعد الله [1] أنّ الثّعالبي أسهم في السّيرة و التّاريخ رغم أنّه اشتهر في علوم الشّريعة و الزّهد، و كتابه: "الأنوار في آيات النّبيّ المختار" تناول سيرة الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم– و غزواته و سِيَر الصّحابة، و يّذكر لنا كيف قسّم الثّعالبي كتابه قائلا: "وقد قسّم الثّعالبي كتابه إلى أبواب و فصول، و هو كتاب ضخم يقع في مائتين و ثمان و سبعين ورقة من الحجم الكبير،و كان الثّعالبي متمرّسا على التّأليف و لذلك كانت خطّته أكثر علميّة من خطط بعض معاصريه" [2] .كما يذكر كذلك أنّ للثّعالبي كتاب آخر يدخل في كتب التّراجم، و هو"جامع الهمم في أخبار الأمم" [3] ليبيّن لنا غزارة إنتاج عبد الرّحمن الثّعالبي، و إسهامه في الحركة العلميّة للقرن التّاسع الذي عرف بالرّكود. و هذا أمر من شأنه أن يوضح بعض الجواني المغمورة من شخصيّة الثّعالبي العلميّة و التي تحتاج كما ذكر الأستاذ قسّوم من ذوي الهمم من الأجيال،همّه البحث و إعطاء علمائنا مكانتهم الحقيقيّة ببيان و كشف جهودهم و إخراجهم من طيّ النّسيان، و هو أبسط حقوقهم على الباحثين و المفكّرين و أمّة تهمل تاريخها و علمائها و أمجادها ليست أهلا للحياة، و إن أرادت دخول التّاريخ من جديد، فلابدّ لها من التّزوّد بالتّاريخ و أخذ العبر و الدّروس منه، لتبني على أساسه حاضرها و تستشرق منه و تتطلّع إلى مستقبلها.

[1] أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثّقافي،ج1،ص 69

[2] المرجع نفسه،ص69

[3] المرجع نفسه،ج1،ص70